المنتدى التونسي
للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المراهقة في المنفى

رحلة القصر التونسيين غير المصحوبين في فرنسا

مرام تبيني

الفهرس

المقدمة 6

ذكرة منهجية 9

01 في نشأة المقاربة الأمنية للهجرة : تسييس الهجرة وأمننتها 11

1.1 ما يقع تركه: أسباب الرحيل 11

1.1.1 خيار الرحيل 11

1.1.1 2 الرهانات الأسرية والمسؤوليات الأبوية 13

3.1.1 البحث عن الفاعلية 14

2.1 رحلة العبور. 15

1.2.1 تفادي الخطر 15

2.2.1 الصدمات النفسية والتضامن 16

3.1 الوصول و"تحقيق الآمال 17

1.3.1 الزامية الهروب والتنقل عبر أوروبا 18

2.3.1 الاندماج في المؤسسات والبحث عن الاعتراف بعدم بلوغ سن الرشد والعزلة 19

02 الانتقال الهوياتي وبناء تمثيلية القاصر غير المرافق 20

1.2 ما يقع تركه: أسباب الرحيل 20

1.1.2 الكذب والخداع 20

2.1.2 الانحراف 21

3.1.2 استحالة الاندماج 22

2.2 العلاقة مع تونس والموقع في فرنسا 23

1.2.2 قطيعة متسرعة 23

2.2.2 بين الطاعة الرمزية والتمتع المادي 24

3.2 رعاية القصر التونسيين غير المصحوبين داخل النظم المؤسسية الفرنسية وخارجها 25

1.3.2 الحواجز التي تم تجاوزها 25

2.3.2 الاستراتيجيات التي تم وضعها 26

خاتمة 27

مقدّمة

نادرا ما يتم التطرق الى موضوع الطفولة في تونس رغم أنه لا يمكن الحديث عن حالة المجتمع الذي نعيش فيه دون الحديث عن السكان الذين يمثل الأطفال شريحة هامة منهم. تختلف سمات هؤلاء الأطفال وتتنوع ومن بين الأطفال التونسيين نجد من يعيش في المنفى، كما نجد أجانب في تونس وتونسيين في الخارج. نتحدث هنا عن مسارين للتنقل: الهجرة والهجرة الوافدة.

الطفولة والمراهقة في المنفى لا تعتبر ظاهرة جديدة حيث أدت مختلف الأزمات التي عاشتها تونس الى ارتفاع عدد الأشخاص المهاجرين المصنفين من طرف البلد الذي هاجروا اليه "كقصر منفردين" ثم "قصر غير مصحوبين". يخضع هذا التصنيف إذا الى معيارين: سن المهاجرين القصر الذي يجب اثباته وانفرادهم، أو عدم مرافقة راشدين لهم خلال رحلتهم الهجرية[1] .

في هذا السياق، يمكن تعريف الطفولة بطرق عديدة، ولفهم الرحلة الهجرية للقصر غير المصحوبين من الضروري التطرق الى مسائل عدة كالاختيارات، القطيعة، المساعي والاستقبال. ان التساؤل حول مساري الانطلاق والوصول ينطوي على تساؤل حول استمرارية السيرة الذاتية التي تتعرض الى عديد الانقطاعات والترميمات[2] .

يمكن تعريف القصر غير المصحوبين كأشخاص يقل سنهم عن 18 سنة، يتنقلون الى دولة ليسوا مواطنين فيها ولا مقيمين، ولا يرافقهم وصي شرعي. تعرف مؤسسات الاتحاد الأوروبي القصر غير المصحوبين كالتالي: "مهاجرون من بلد ثالث، سنهم دون 18 سنة يدخلون أو يمكثون في دولة من الدول الأعضاء دون مرافق راشد مسؤول عنهم قانونيا أو عرفيا أو من يكفلهم[3] .

حسب منظمة الأمم المتحدة للطفولة، يبلغ عدد المهاجرين الذين يقل سنهم عن 20 سنة حوالي 33 مليون مهاجر، أي 16% من مجموع المهاجرين سنة 2011[4] . إضافة الى أهمية عددهم وهشاشة وضعهم، يمثل الأطفال المهاجرون تحديا في علاقة بحماية حقوق الانسان.

---

[1] سينوفيلا هيرناندیز، دانيال. " تحليل لفئة قانونية حديثة: القاصر الأجنبي غير المرافق أو المنفصل أو المعزول؟" المجلة الأوروبية للهجرة الدولية 1 (2014): 17-34.

[2] المرجع السابق .

[3] المادة 1 من قرار مجلس الاتحاد الأوروبي الصادر في 26 جوان 1997 بشأن القاصرين غير المرافقين من رعايا بلدان ثالثة

[4] إيبا نغويما، نسرين. "حماية القاصرين المهاجرين غير المرافقين في أوروبا." مجلة حقوق الإنسان. مجلة مركز البحوث والدراسات حول الحقوق الأساسية 7.(2015)

أثار ارتفاع عدد القصر غير المصحوبين بداية من سنة 2000 اهتمام عالم البحث الأكاديمي والتطبيقي في أوروبا وتناولت البحوث الصحة النفسية لهؤلاء الأطفال والمراهقين الواصلين دون وصي شرعي بعد عبور البحر الأبيض المتوسط والسفر طويلا خفية. مثلت الآثار الفادحة لهذه الرحلة ومختلف تجلياتها على الصحة العقلية والنفسية لهؤلاء الشبان محورا للبحوث التي تواصلت وتطورت لتتطرق الى ظروف الاستقبال والمتابعة[5] .

في سنة 2023، تكفلت مصالح المساعدة الاجتماعية للأطفال بفرنسا ب 19370 قاصر غير مرافق وقد أخذ هذا الرقم منحى تصاعدي خلال السنوات العشر الأخيرة. في سنة 2022، مثل القصر غير المرافقون التونسيون 10.68% أغلبهم من الذكور (بنسبة 93.2%) وسن 75% منهم أكثر من 16 سنة [6] .

في هذا السياق، تندرج مرافقة وادماج القصر غير المصحوبين ضمن مجموعة من الإشكاليات والرهانات السياسية الاجتماعية المتناقضة.

بدأت هذه الظاهرة في التسعينات وأدى ارتفاعها في السنوات الأخيرة الى تطوير سياسات فرز ومراقبة حيث يتم تحديد وعزل القصر غير المصحوبين باتباع إجراءات تقييمية[7] مندرجة ضمن سياسة الاشتباه في القصر[8] .

بعد إتمام الإجراءات، تتكفل مجالس أقسام حماية الطفولة بالبعض موفرة لهم المأوى وعددا من البرامج التعليمية والمهنية بينما يُستبعد البعض الآخر ليجدوا أنفسهم في وضعية غير نظامية ويعيشوا حياة الخطر والتشرد. هذا وتجدر الإشارة الى أن الأشخاص الذين تم التكفل بهم لا مفر لهم من وطأة سياسات الاشتباه حيث عليهم الانصياع للأوامر الزجرية [9] الى جانب التأقلم مع العالم الجديد في ظل تعلقهم ببلدانهم الأصلية.

هم مجبرون اذا على بناء مستقبل جديد مختلف تحت ضغوطات عديدة. يترسخ المسار الهجري للقصر غير المصحوبين في ثنائيات الخيال والتناقض، الانتظارات والضغوط الاجتماعية، الضغوطات الثقافية والسياسية.

---

[5] غيسوم، سليم بنجامين وآخرون. "رعاية القاصرين غير المرافقين: خصوصيات النظام التكاملي في سياق عابر للثقافات L'Autre". 21.3 (2020): 262-273.

[6] بعثة القصّر غير المرافقين - وزارة العدل الفرنسية، https://www.vie-publique.fr/eclairage/286639-mineurs-etrangers-isole-un-dispositif-de-prise-en-charge-sature

[7] باتي، نويمي. "العمليات التمييزية في صميم ممارسات تقييم الأقلية وعزل القاصرين غير المرافقين. Hommes & migrations". المجلة الفرنسية المرجعية لديناميات الهجرة 1333 (2021): 39-46.

[8] باتي، نويمي" .آثار الأمر القضائي السردي على القصر غير المرافقين بذويهم، بين المقاومة والتبعية *psychologie clinique*". 1 (2022): 124-135.

[9] باتيه، نويمي. "المشتبه بهم من الأغلبية .Revue Projet, 2022/5 N° 390, 2022". ص 26-31, CAIRN.INFO . https://shs.cairn.info/revue-projet-2022-5-page-26?lang=en.

يحمل القصر غير المرافقون تمثلات اجتماعية حول البلد الذي يقصدونه وتحمل السياسات تمثلات اجتماعية حول هؤلاء الشبان الراغبين في الكذب واستغلال وتلويث الفضاء العام. هكذا يُصنع الواقع بين هذه التمثلات.

تتعدد تجارب القصر غير المصحوبين وتتعقد. في هذا المقال، سنركز على تجارب محددة رغم اختلافها لقصر غير مرافقين تونسيين في مدينة من المقاطعات الفرنسية قرب الحدود الألمانية.

سيتم التطرق الى تونس والسياق الاجتماعي السياسي في تونس خلال التحليل النوعي للمحادثات الشخصية كما سيتم التطرق الى سياق تطوير مشروع الرحيل.

انطلاقا من الانثروبولوجيا الاجتماعية للهجرة والطفولة، نطرح على أنفسنا التساؤلات التالية: ما هو المسار الهجري للقصر التونسيين نحو وفي أوروبا؟ كيف يتم التعامل مع المراهقة وتقلباتها في المنفى؟ ما وصف التمثلات الاجتماعية والسياسية وبناء الشخصية للقصر التونسيين؟ على أي أساس يتم تعريف التضامن والتحالفات والتناقضات والصراعات في هذا السياق؟ ما هي الاستراتيجيات المطورة للتعامل مع مؤسسات الرعاية؟

يسعى هذا المقال الى الإجابة عن هذه التساؤلات انطلاقا من استبيان نوعي تم في أحد المدن الفرنسية واستهدف عددا من القصر غير المصحوبين المدمجين في نظم الرعاية. سيركز هذا المقال على سرديات القصر غير المصحوبين ووصفهم لتجاربهم.

بالتالي، سيتم ابراز الطابع الشخصي لهؤلاء الشبان مما ينزل المقال في وضعية تستلهم من مقاربات البحث "من الأسفل" وتضفي عليه بعدا تصاعديا لوصف آليات السلطة التي "يخضع" لها هؤلاء الأشخاص بموجب النظام الذي يحكمهم.

مذكرة منهجية

تترسخ نقطة انطلاق هذا المقال في حقل علم اجتماع الهجرات، الانثروبولوجيا الاجتماعية للإنسانيات وعلم اجتماع الطفولة والعائلة ليغطي الجوانب المتشعبة لاستقبال ورعاية المهاجرين، القصر غير المصحوبين على وجه الخصوص.

تم تحرير هذا المقال على أساس عشر استبيانات نوعية استهدفت قصر غير مرافقين تونسيين تم التكفل بهم من طرف نظم حماية الطفولة في فرنسا. جميع المشاركين في الاستبيان من جنس الذكور.

الى جانب الاستبيانات النوعية، تم جمع المعطيات النوعية – حول تجارب القصر غير المصحوبين التونسيين من خلال بحث اثنوغرافي تم عن طريق رصد المحادثات غير الرسمية. أجريت المحادثات على مدى عدة أشهر انطلاقا من مارس 2023 اما عن طريق الهاتف أو مباشرة في ستراسبورغ، أي يعيش هؤلاء الشبان.

جميع القصر غير المصحوبين الذين تحدثنا معهم من جنس الذكور وتتراوح أعمارهم بين 15 و17 سنة. عبروا جميع البحر الأبيض المتوسط للوصول الى أوروبا، حيث مروا الى إيطاليا ثم الى فرنسا. سبعة من الشباب المستجوبين أصيلو منطقة صفاقس، اثنان أصيلا مدينة سوسة وشاب واحد أصيل مدينة القيروان.

نشأت فكرة هذا البحث خلال لقاءات نظمت في إطار عمل بمبيت للقصر غير المصحوبين. حينما قدمت مشروع الاستبيان، تلقيت اقتراحا للتواصل مع بعض القصر غير المصحوبين الذين "لهم قصص مثيرة يروونها". عند بناء علاقة الثقة معهم، آليت أهمية قصوى للتجارب المباشرة لهؤلاء الأشخاص الذين تحاورت معهم[10] .

طبيعة الاستبيانات كانت شبه موجهة مما أضفى عفوية على المحادثات[11] . في أحيان أخرى، مثل الاستبيان فضاء للتفكير لي وللمشاركين حيث فسح المجال لهم للتفكير في تجاربهم وممارساتهم وكان فرصة لتحليل التناقضات والنقاش حول مواقفهم[12] .

أجريت المحادثات مع مجموعتي المشاركين في فضاءات مختلفة. يعود خيار اجراء المقابلات في أماكن عمومية الى الحد من تنقل الشباب وما قد يتطلبه ذلك من مصاريف. جرت المحادثات كذلك عن طريق

[10] أوليفييه دي ساردان، جان بيير. "سياسة الأرض. حول إنتاج البيانات في الأنثروبولوجيا Enquête. Archives de la revue ". Enquête 1 (1995): 71-109.

[11] بيان، آنايك "الى حدود أوروبا الجديدة" .(2009) *La Dispute*

[12] كابوت باستيان "الى أي نطاق نقوم بإصلاح العالم؟" .*Cahiers Jaurès* 234.4 (2019): 107-114.

شبكات التواصل الاجتماعي – بعد اللقاء الأول – من خلال ما أسمته فيرونيكا ل.جريجوريو "عملا ميدانيا مستمرا بوساطة" مما سمح لي بمواصلة مسار البحث مع الحفاظ على تواصل مستمر مع المشاركين افتراضيا[13] .

[13] غريغوريو، فيرونيكا ل. "إعادة تأكيد الأنوثة: الشابات المتحولات جنسياً والعمل الجنسي عبر الإنترنت في الفلبين". القانون الجنائي والأقليات في الجنوب العالمي: الحقوق والمقاومة في عالم غير استعماري ,Cham: Springer International Publishing . 2023. 253-269.

01 الرحلة الهجرية للقصر التونسيين نحو وفي أوروبا

تتسم الرحلات الهجرية للقصر غير المصحوبين بالتعقيد حيث تنطلق مع ظهور مشروع الهجرة وتتواصل حتى الوصول وبداية الاندماج في المؤسسات بهدف تسوية الوضعية القانونية بالنسبة للأغلبية.

تعني الهجرة ترك أرض معروفة للاستثمار في أخرى، ولا يفر الشباب في السياق التونسي من ويلات الحروب، بل يطمحون الى حياة مثالية. تبدو هذه الحياة المثالية بعيدة المنال في أول وهلة ثم تصبح مألوفة حسب الروايات التي تم جمعها في تونس ثم عن طريق التجربة عند الوصول.

تشجع الروايات التي تخضع الى منطق فردي واجتماعي مرتبط بالسياق المشروع الهجري. بالتالي، يمكن تعريف المشروع الهجري كمجموع الأبعاد السابقة واللاحقة و"ربط مختلف الأصعدة التي تتقاطع فيها هذه الأبعاد" [14].

1.1 ما يقع تركه: أسباب الرحيل

1.1.1 خيار الرحيل

خيار الرحيل في روايات الشباب التونسيين ليس عبثيا، ولم يتم اتخاذه بعد تفكير طويل ولا جاء بمحض الصدفة. سلطت العلوم الاجتماعية الضوء – لوصف أبعاد التجربة الهجرية – على قواميس القطيعة والتمزق

[14] فلورنس بوير. مشروع هجرة المهاجرين الطوارق في منطقة بانكيلاريه: الفقر المتبرأ منه Stichproben. Wiener Zeitschrift . fur Kritische Afrikastudien, 2005, 8, pp.47-67. ⟨hal-01292204⟩

والتغرب وتطورت لتركز على تنوع المسارات التي تبني التجربة البيوغرافية شيئا فشيئا عن طريق المسار الهجري. يشمل هذا المسار ظهور أشكال جديدة لسكن الفضاءات مرتبطة بأسباب الرحيل.

أغلب المشاركين في الاستبيان عزوا رحيلهم الى أسباب اقتصادية كما أن عددا كبيرا منهم يعرفون بعضهم البعض قبل الهجرة حيث يقطنون في نفس المنطقة، وأحيانا في نفس الحي. ركز المشاركون على الهشاشة الاقتصادية لذويهم ولجميع الأشخاص الذين يعرفونهم. برز الفقر في رواياتهم كما برز اليأس ونوع من "الاستسلام" في علاقة بأي شكل من أشكال التطور الاجتماعي. يبقى الفقر والهشاشة قارين بالنسبة لهؤلاء الشباب ولا أمل لهم في تغير الوضعية.

بالنسبة لهم، يتعلق تنفيذ المشروع الهجري "بمصير مشترك" يحاولون بلوغه.عند طرح سؤال حول الوضعية الاجتماعية لعائلاتهم، أجاب أحد المشاركين أنه "لا يرغب أن يصبح مثلهم حين يكبر" فيما أجاب آخر بأنه كان متأكدا من قرار الرحيل حالما صار فقدان المواد الغذائية من الأسواق أمرا متكررا. في هذا الصدد عبر قائلا: "لم أكن لأنتظر حتى يقتلنا الجوع، كان عليا أن أنقذ نفسي حتى أتمكن من انقاذ الآخرين."

دافع الرحيل لتحسين الأوضاع ومساعدة الآخرين لاحقا دافع مشترك لدى شباب آخرين. تشير الرغبة في "انقاذ" العائلة الى حضور الرهانات الأسرية واحساس الشباب بالمسؤولية الأبوية، حيث ذُكرت الرغبة في انقاذ العائلة من طرف عديد المشاركين كما تم تقديم الرهانات الأسرية كدافع للرغبة في الرحيل[15].

مع ذلك، لا تقتصر دوافع الهجرة على الأسباب الاقتصادية بالنسبة للشباب اذ اختار بعضهم الرحيل بسبب العنف والتحرش داخل المحيط العائلي.

اختار بعض الشباب الهجرة للفرار من العنف نحو عالم آمن في مخيلتهم. حتى وان تعرضوا للعنف في أوروبا، يلعب الفرار من العنف والاهانة التي تعرضوا لها في الطفولة دورا رئيسيا في تشكيل وتطور المشروع الهجري لهؤلاء الشباب[16] .

أسباب هجرة القصر غير المصحوبين في فرنسا ليست أسبابا مدروسة بحيادية وعقلانية من وجهة النظر الاقتصادية اذ لم يجمعوا المعلومات الكافية حول دولة الاستقبال، بل اتخذوا قرارهم بناء على أسباب فردية وتجارب شخصية وأسرية في المجتمع الذي يعيشون فيه[17] .

[15] غي، دودو دي "التحركات لانطلاق الهجرة" .11-26 :(2007) 109.1 *Migrations Société*

[16] كيميه، صبيحة "الحراقة الجزائريون: رحلة إلى وجهة غير معلومة-157 :(2020) 118.1 *Recherches Internationales* ". 178.

[17] Petek-Şalom, Gaye. "Les ressortissants turcs en France et l'évolution de leur projet migratoire." *Hommes & Migrations* 1212.1 (1998): 14-23.

2.1.1 الرهانات الأسرية والمسؤوليات الأبوية

ان المشروع الهجري ليس مشروعا فرديا، بل يندرج ضمن مقاربة جماعية وعائلية. تلعب الأمهات والآباء وحتى المحيط العائلي والموسع (أفراد الحي، العائلة الموسعة) دورا في تشجيع الرحلة أو تأخير المشروع.

أقدم بعض المشاركين على السفر هربا من العنف الأسري بينما تلقى البعض مساعدات مالية من أسرهم للرحيل. اثنان من المشاركين صرحوا بأن أمهاتهما اقترضتا أموالا لتمويل مشروع "الحرقة" (اجتياز الحدود) وخلاص المهرب كما روى مشارك آخر بأن أمه باعت حليها الذهبي الذي كان هدية زواجها لتأمين متطلبات الرحلة. من جانب آخر، سافر أصغر قاصر غير مرافق سرا ولم يُخبر أحدا سوى شقيقه المتواجد في فرنسا عن قرار رحيله.

يعود ذلك الى الوضع الاقتصادي والاجتماعي الصعب لعائلات الشباب (فقر، عنف، معاناة واهانات يومية). تختار العائلة الشاب لهذه الرحلة باعتبار إمكانية تسوية وضعيته حين يبلغ سن الرشد. فسر أحد المشاركين الوضعية قائلا: "لأنه يمكن تسوية وضعيتنا حين نبلغ عمر 18 سنة كما أننا نعتاد الغربة بشكل أسهل باعتبارنا أصغر سنا." هذا الشباب أصيل مدينة سوسة هو أصغر أشقائه كما أنه القاصر الوحيد في عائلة مفككة بعد طلاق أبويه بسبب عنف والده.

أشار جميع الشبان الى دور أمهاتهم أيا كان شكل تدخلهن (التشجيع أو الرفض). سواء كن في وضعية اقتصادية هشة أو تعرضن للعنف من طرف أزواجهن، لعبت الأمهات دورا في اتخاذ قرار أبنائهن للهجرة وأيضا في حياتهم بعد الوصول.

بقي الشباب في تواصل مع أمهاتهم رغم جميع العراقيل ولعبت مواقع التواصل الاجتماعي دورا في استمرارية التواصل الى جانب مكانة الأم في حياة ابنها رغم المسافات. من خلال هذا الرابط، طورت الأمهات وأبناؤهن شكلا من أشكال المقاومة ضد رهانات الهشاشة الاقتصادية والسياسية في ظل العولمة[18]. رغم ضيق الامكانيات [19]، يرسل الأبناء لأمهاتهم صورا إيجابية لمكان سكنهم، للمناظر الطبيعية التي تحيطهم، لنشاطاتهم ولماركات الملابس باهظة الثمن لطمأنتهن ولإقناعهن بأن الحياة المثالية المرجوة لم تكن سرابا.

[18] القرناوي، وائل "أمي، ألا ترين أنني أحترق؟" رسم فهم الديناميات الأسرية للمهاجرين غير النظاميين المفقودين Watermark ". 28.2 (2019): 137-152.

[19] يحصلون على حوالي عشرة يورو في الأسبوع، إلا في حالة العقوبة.

غياب الأب كان واضحا من خلال الحوارات مع الشباب ففي حين كان حضور الأمهات طاغيا، غاب الآباء جسديا ومعنويا. صرح مشارك واحد بأنه على تواصل مع أبيه الذي يسدي له نصائح حول السلوك الذي يجب اتباعه في الخارج.

سلطت هذه النصائح الضوء على ضرورة التزامه بسلوك مثالي وعلى حجم المسؤولية التي يحملها هذا القاصر غير المرافق على عاتقه. أشار مشارك آخر الى عجز أبيه عن تحمل المسؤولية قائلا: "لو كان بوسع أبي تحمل المسؤولية لما فكرت في الرحيل". بهدف التعويض عن فشل الأب، واجه الشاب ذو 15سنة خطر عبور المتوسط للتكفل بأخواته وأمه آملا أن يتمكن من ارسال النقود لهن والتقليص من هشاشة حياتهن.

نلاحظ من خلال حواراتنا مع الشباب، اضطلاعهم بالمسؤولية الأبوية وانتقال المسؤوليات العائلية لتوضع على عاتق هؤلاء الشبان العابرين للحدود فعوضا عن تمتعهم بحماية والديهم، يتحملون مسؤولية انقاذ عائلاتهم من الفقر والعنف وحتى تحقيق أحلامهم.

3.1.1 البحث عن الفاعلية

يمثل السفر بالنسبة لهؤلاء الشبان وسيلة للعيش والانفاق بشكل مستقل ويُنظر له كعملية استراتيجية، عقلانية وسياقية مبنية عمدا [20]. بالتالي، تتسم العناصر السياقية والوعي بها بالأهمية حيث ترتبط التوقعات المستقبلية بتطور الاستراتيجيات.

قد تدفع العوامل الاقتصادية والعائلية الشباب الى اتخاذ القرار، ولكنهم يتحكمون بكيفية بناء المشروع وتنفيذه في الزمان والمكان.

البحث عن مهرب، غموض عملية العبور، الشكوك حول مآل العملية، الوضعية الشخصية لكل من القصر غير المصحوبين، منطقة المنشأ والعادات والتقاليد، الانتظارات ولآفاق المرجوة، بالإضافة الى قرار الرحيل، كلها عوامل تؤثر على وضع الاستراتيجيات التي تتغير بدورها حسب السياق.

يتمكن الشباب حال عبورهم للحدود من تجاوز أدوارهم السلبية والعاجزة وعبور الحواجز النفسية والاجتماعية واثبات ذواتهم. تبرز فعاليتهم حين يصبحون أشخاصا وخاصة أطفالا نشطين، لا يعتمدون على آخرين، بل فاعلين اجتماعيين مستقلين[21] .

تتعدد العقبات التي تواجه الأشخاص العابرين للحدود سواء بطريقة نظامية أو غير نظامية وتتضاعف هذه العقبات حين يتعلق الأمر بأطفال غير مرافقين، يغامرون بحياتهم وكرامتهم. قدرة الشباب على "اجتياز

[20] لوسو، ميشيل وجاك ليفي. "قاموس جغرافية وفضاء المجتمعات". (2003): 966-967.
[21] أبيبي، تاتيك. "إعادة تصور وكالة الأطفال كسلسلة متصلة ومترابطة". العلوم الاجتماعية 8.3 (2019): 81.

هذه العقبات" هي مهارة تتطور بمرور العوائق وتمكن من تكوين شكل من أشكال الفعالية لتصبح قوة من "القدرة على التعامل" وتكون أساسا "للصمود والمقاومة".

2.1 رحلة العبور

إثر وضع المشروع الهجري، يُقدم الشباب على رحلة عبور تغير حياتهم واهتماماتهم. البحر الأبيض المتوسط هو هذا الفضاء الزمني الذي بعبوره يتحررون، حيث تكمن رهانات سيطرتهم بين ضفتيه الشمالية والجنوبية.

تتم عملية العبور بصفة جماعية، بحضور مهرب اعتاد مثل هذه الرحلات والذي تتمثل مهمته في ايصالهم الى بر الأمان. ولكن بالنسبة لهؤلاء الأطفال، يظل الخطر يرافقهم كظلهم وترافقه الصدمات النفسية التي قد تحدث نتيجة بعض التعقيدات أو الحوادث خلال الرحلة كما ترافقه حركات تضامنية وانتماءات لمجموعات تسمح بمقاومة المخاطر وتأثيراتها السلبية على غرار الصدمات النفسية.

1.2.1 تفادي الخطر

رغم صعوبة طرح مسألة الخطر في سياق مليء بالآمال والانتظارات، الا أن الخطر يبقى متفشيا في حالة الشباب العابرين للمتوسط. تنطوي رحلة العبور على أخطار متعددة منها الجسدية والنفسية والعاطفية وتتضاعف المخاطر بسبب السن الصغير وعزلة القصر غير المصحوبين. خلال رحلتهم يتعرض القصر الى اختلاف الحالة الجوية التي لا يمكن التنبؤ بها كما يتعرضون لخطر الغرق الذي يهدد حياتهم[22] .

يتم خوض مغامرة الحرقة بغية الوصول الى حياة رُسمت في خيالهم [23] وطالما حلموا بها.[24] هي رحلة بحث عن الفعالية والكرامة، لذلك قلما تُبرز المحادثات حول الرحلة مع القصر غير المصحوبين الفرق بين المغامرة والخطر.

وصف الشاب الأصغر سنا رحلته مقارنا إياها بمستوى صعب للعبة الكترونية تمكن من الفوز به ليعيش الحياة التي يعيشها حاليا. لم يركز هذا الشاب على خطورة رحلة العبور بل كانت بالنسبة له عبارة عن تحد يجب عليه الفوز به.

[22] كوبلينسكي، كارولينا. "حياة موتى الهجرة.Plein droit 2 (2016): 6-9 ".

[23] نعيمة، الفقيه، والحرشاني الهادي. "' الهجرة السرية في الفن السمعي البصري التونسي: صورة الحراقة في لامبيدوزا: مأساة فنية أم كارثة إنسانية؟

[24] بيدلوب، سيلفي "المغامر، شخصية الهجرة الأفريقية." الكراسات الدولية لعلم الاجتماع 2 .306-281 :(2008) .

وصف شاب آخر في عمر 17 سنة تجربته قائلا بأن الله قد حماه بعد تغير الأحوال الجوية فجأة حيث قال: "ليس لك الا الدعاء والابتهال الى الله حتى وان لم تكن تمارس الدين" حيث أكد بأنه في ظل الظروف التي واجهها واليأس التام، كان الدين هو الأمل الوحيد للنجاة. هكذا يصبح الدين عنصرا هاما في بناء الهوية وملجآ في سياق الهجرة بين الضفتين[25] .

فقد شاب آخر في سن 16 سنة وعيه خلال رحلة العبور بعد التعرض لموجة من الهزات وانتشار حالة من الهلع والرعب في المركب الذي استقله صحبة عدد من شباب وكهول الحي الذي يقطنه وبعض النساء من جنوب الصحراء. وصف الشاب حالة الرعب والقلق التي تسببت له في فقدان الوعي وحدثنا بأنه حين فقد وعيه حلم بأمه وعطفها وحنانها تحاول ايقاظه من نومه. تفكير الشاب في حنان الأم وعاطفتها مكنه من التغلب على قلقه وتفادي الخطر والاستفاقة دون التعرض لمزيد من الضغط والأخطار، بعد الاغماء بسبب هشاشته.

تجمع رحلة العبور أهوال شتى المخاطر التي يتعرض لها الأطفال: انعدام الأمن، العنف وخطر الغرق المستمر. يطور الأطفال استراتيجيات لإضفاء معنى على ما يعيشونه وهم عزل، دون مرافقة وحماية أبوية وفي كنف غموض مستقبلهم : الألعاب، الدين، الوالدين... الخ. هذه الوسائل الانثروبولوجية هي أدوات يستخدمها الشباب لخوض رحلة تنحت معالم هويتهم وتشكل ذواتهم.

مسألة الخطر المتفشي وتنظيم الحياة بتتفيه خطر الموت – باعتباره جزءا لا يتجزأ من الرحلة – وقبوله من طرف الدول يدعونا الى التفكير في القصر غير المصحوبين كمجموعات تحكمها أجسادها المجازفة فإما الموت أو الحياة[26].

2.2.1 الصدمات النفسية والتضامن

تؤثر مخاطر رحلة العبور على رؤية القصر غير المصحوبين لأنفسهم وللعالم فالصدمات النفسية تتسبب في نتائج مباشرة وهامة على شخصيتهم وتطورهم. تؤدي الصعوبات التي يواجهها الشباب أثناء رحلتهم الى ردات فعل ناتجة عن الصدمة لا تختفي بالرفض أو النكران الذي تعتمده الضحية.

تتسبب الحوادث الصادمة أثناء رحلة العبور (عنف، خطر الموت غرقا) في اضطرابات نفسية[27] لا يتم دائما التكفل بها كما أنها يمكن أن تتفاقم وتزداد سوءا في حال السكن في بيئة غير سليمة.

---

[25] نبيلة، موساوي فطيمة " من أجل دراسة إثنوغرافية للدين في مجال الهجرة في الجزائر"، مجلة القانون والمجتمع والحياة، المجلد , , n01, 2020.09

[26] ميشيل فوكو، إرادة المعرفة، التاريخ الجنسي(I) ، دار غاليمار، 1976. ميشيل فوكو، نشأة السياسة الحيوية. مقررات كلية فرنسا 1978-1979، Seuil، 2004.

[27] سينانيان، ألكسندر، وفلورنس روبن بوبار. "الصدمة والأسرار: قضايا في العلاقة السريرية مع القصر غير المرافقين Nouvelle revue de ". psychosociologie 25.1 (2018): 177-190.

عبر عديد المشاركين عن معاناتهم النفسية المرتبطة برحلة العبور حيث تحدثوا عن ظهور أعراض كاسترجاع أحداث الرحلة، كوابيس، إحساس بالضيق والحزن ونوبات من الدموع. ينكر الشباب اضطراباتهم النفسية – لإخفاء نقاط ضعفهم – أو يتحدثون عنها باستمرار في شكل من أشكال طلب المساعدة[28] .

بالإضافة الى هذه المعاناة، نرصد مظاهر نفسية واجتماعية أخرى كالمرونة المجتمعية والتضامن مع الأشخاص الذين عاشوا نفس التجربة في البحر الأبيض المتوسط [29]. هذا التضامن بين الشباب "الحراقة" يعتمد بالأساس على الانتماء الى الهامش ويقتصر على الأشخاص الذين خاضوا نفس الرحلة[30] .

للهامش تعريف جديد – مرتبط بتجربة الحرقة –يعيشه الشباب كوضعية اجتماعية الا أن مصير جميع الشباب لا يتشابه اذ بينهم من هو محظوظ أكثر من أقرانه كمن يعيش أقرباؤه على عين المكان أو من كان لهم عوامات انقاذ سواء بالمعنى الحرفي أو المعنوي.

يدعو المنفى وخصوصا رحلة العبور الى ظهور أشكال جديدة وثورية من التضامن حيث لا وجود لطرف مسيطر فيها بل تُبنى أساسا على التجارب التي عاشها الشباب شخصيا. يتعلق الأمر بشكل من أشكال "الترابط" بين مجموعة من الأشخاص الذين قاموا بأعمال منحرفة حسب معايير المجتمعات الغربية وخطاب الطبقة المهيمنة في تونس.[31]

3.1 الوصول و"تحقيق الآمال"

رغم الشعور بالراحة والأمل وتجدد التطلعات عند الوصول الى البلد الذي يمثل الطموحات والآمال لا تختفي التحديات والصعوبات، بل تبدأ رحلة جديدة من النضالات والمطالب، تكون أحيانا أكثر تعقيدا من تلك التي تمت مواجهتها عند وضع المشروع الهجري أو عند العبور.

الصعوبات الإدارية، الهشاشة المادية، الوحدة العاطفية، التأقلم الثقافي والاجتماعي والانتقال الى سن النضج... كلها مصاعب يجب على القصر غير المصحوبين مواجهتها حال وصولهم الى مكان آمن كما عليهم اتخاذ قرارات مصيرية قبل الوصول الى هذا المكان تتعلق باختيار وجهة وشكل من أشكال التكفل[32] .

[28] بن سعادة، وفاء :L'exil en héritage. ذكريات الصدمات. أطروحة Université Paris Cité, 2021 .

[29] شينا، سليم. ""إنتاجية الهامش في المنفى. إعادة تأهيل المنفى، موضوعية المنفيين". السياسة الأفريقية، 1/2015 العدد 137، 2015. ص 49-69. CAIRN.INFO, shs.cairn.info/revue-politique-africaine-2015-1-page-49?lang=en .

[30] ج. سيميل، الفقراء، باريس، ، مطابع جامعة فرنسا، مجموعة "كوادريج"، 1998، ص 56؛ هـ. بيكر، الغرباء. دراسات في علم الاجتماع، باريس، Métailié، 1985، ص 57-58 و207.

[31] ا. كورين "مركزية الهامش وديناميات المركز" انثروبولوجيا ومجتمعات, vol. 10, no. 2, 1986, p. 2.

[32] فيبي وروزيتا وجياني داماتو. "الهجرة عبر الوطنية في أوروبا: أدلة من الأدلة". المجلة الأوروبية للهجرة الدولية 24.2 (2008): 7-22.

1.3.1 الزامية الهروب والتنقل عبر أوروبا

بعد النجاة من رحلة العبور، يجد القصر غير المصحوبين أنفسهم في إيطاليا والتي لا تمثل الوجهة النهائية للجميع. يختار بعض الواصلين البقاء في إيطاليا بينما يواصل آخرون رحلة العبور الى فرنسا، ألمانيا أو انجلترا والتي تعتبر وجهات مفضلة أكثر من إيطاليا.

بالنسبة للأشخاص الذين قابلناهم في إطار هذه الدراسة، غالبا ما يصل القصر غير المصحوبين الى إيطاليا ليواصلوا رحلتهم الى فرنسا. يهربون من إيطاليا، حسب أقوالهم، إثر التعنيف أو الاستغلال "للعيش بسلام بعيدا عن المشاكل" كما عبر أحد القصر الذي انتقل الى فرنسا بعد أسابيع قليلة من وصوله الى إيطاليا "كي لا يضطر لممارسة أفعال غير قانونية".

يعود اختيار السفر الى فرنسا الى البحث عن السلام والابتعاد عن العلاقات المشبوهة حسب شهادة عديد الشباب. ومن أسباب هذا الخيار كذلك اتقان اللغة الفرنسية وسهولة الاندماج نسبيا ووجود شبكة من المعارف في نفس البلد.

عادة، يستقل الشباب الحافلة للوصول الى مدينة "نيس" ثم يركبون القطار للتنقل في أرجاء فرنسا. خلال تنقلاتهم، يبلور الشباب استراتيجيات لتفادي المراقبة كما يفعل جل المهاجرين غير النظاميين. الهيئة المغاربية وبنية الأجساد "العربية" [33] الفارعة تزيد من خوفهم من المراقبة حيث تعرضهم هيأة أجسادهم وملابسهم للأحكام العنصرية ضد الأطفال "غير البيض" وللعنف البوليسي[34] .

خلال هذه التنقلات، تتواصل موجات العنف الذي يتعرض له الشباب منذ وصولهم الى إيطاليا في شكل آخر، وكأنها جزء لا يتجزأ من رحلة العبور. في انتظار التكفل بهم، يجد القصر غير المصحوبين أنفسهم في وضعية غير نظامية، يتفادون الخطر والتهديدات بالترحيل[35] أو بالعيش في الشوارع[36].

يتنقلون متفادين خطر الرقابة والعنف البوليسي الذي قد يتعرضون له في حال الإيقاف أو الترحيل. تعرضهم أجسادهم للتمييز العنصري وتعرضهم تنقلاتهم لأشكال من العنف لم يعهدوها في تونس ويكتشفون خلال رحلتهم بأنهم ما عادوا تونسيين، بل مغاربيين وعرب. يكتشفون سريعا بأنهم معرضون للعنصرية [37] ويعاينونها في حياتهم الشخصية والاجتماعية.

---

[33] جحجاح، مارك إثنوغرافيا ذاتية لجسد مستعمَر. إبستمولوجيا المزة اللبنانية .Itinéraires ".أدب، نصوص، ثقافات 3-2021 (2022).

[34] بيجيه، إيما، "فيالق الوحشية البوليسية.13-6 :(2023) 3 Multitudes ".

[35] بيرجون وسيلين وآن سيسيل هويز. "أن تكوني مهاجرة وتعيشين في سكن عشوائي. الصحة في اختبار المسارات السكنية غير المستقرة .L'Espace Politique ".المجلة الإلكترونية للجغرافيا السياسية والجغرافيا السياسية 26.(2015)

[36] أجيير، ميشيل. العيش تحت التهديد: المهاجرون غير المسجلين والدولةSeuil .، 2022.

[37] بفيفركورن، رولاند. "العلاقات العرقية والطبقية والجنسانية.208-193 :(2011) 133.1 Migrations Société "...

2.3.1 الاندماج في المؤسسات والبحث عن الاعتراف بعدم بلوغ سن الرشد والعزلة

ما أن يختار القصر غير المصحوبين مدينة للاستقرار يشرعون في البحث عن مؤسسات حماية الطفولة بحثا عن الاعتراف بعدم بلوغهم سن الرشد وبوحدتهم ومواصلة مشروعهم الهجري في ظروف جيدة.

هذه المرحلة تحمل رهانات بالغة الأهمية حيث يرافق الضغط والتوتر عملية تقييم عدم بلوغ سن الرشد والعزلة ففي حال الاعتراف بهم يتم قبول الشباب والتكفل بهم بصفة دائمة في مراكز المساعدات الاجتماعية للطفولة أما في حال عدم الاعتراف يُرفضون نهائيا من نظام الاستقبال ويجدون أنفسهم مجددا في الشوارع مهددين بالترحيل[38].

يتم الاعتراف بعدم بلوغ سن الرشد من خلال تقييم السن وعدم المرافقة وذلك عبر المعطيات التي يقدمها الشخص موضوع التقييم والمعلومات المتاحة الأخرى. يهدف التقييم بالأساس الى تقديم اشعار يصدر على ضوئه رئيس المجلس الإقليمي قراره[39]. هامش الخطأ في مرحلة التقييم كبير في حال الاستناد على المظهر الخارجي لأن الأمر يتعلق بوجهات نظر وآراء المقيمين الشخصية.

التثبت من هذه المتغيرات، عدم بلوغ سن الرشد وعدم المرافقة، أمر دقيق يبث الخوف في قلوب الشباب خاصة وأن النتائج قد تكون تمييزية وتعرضهم للخطر[40]. في هذا الصدد، صرح لنا أحد الشباب: "حتى وان كان لنا أقرباء في فرنسا كحال جميع التونسيين، فانهم يستقبلونك لأربعة أيام ثم يطردونك. لهذا السبب لا نصرح بوجود أقرباء لنا هنا والا نخسر كل شيء."

[38] ليجوف، توماس. "استقبال القصر غير الرمافقين بشكل أفضلEsprit ." ، 10/2024 أكتوبر، 2024. ص 95-101 . CAIRN.INFO, shs.cairn.info/revue-esprit-2024-9-page-95?lang=en.

[39] عبد القادر بلبحري، عبد القادر. "رهانات الاعتراف بعدم بلوغ سن الرشد: رموز الاحترام". (2008): 1-186.

[40] ليندارو، أناليزا، "قاصر حتى العظم؟ قاضي الأطفال وعمر الأجنبي الصغير من خلال منظور اختبارات العظام". الإثنولوجيا الفرنسية 2 (2020): 377-389.

02 الانتقال الهوياتي وبناء تمثيلية القاصر غير المرافق

1.2 بناء التمثلات الاجتماعية للقصر غير المصحوبين على محك المراهقة

يترافق المسار الهجري في بلد الاستقبال مع تطور التمثلات الاجتماعية. تنبني هذه التمثلات على عناصر تمييزية وترتبط بتأثيرات متعلقة بمظهر المهاجر الغريب، وفي هذه الحالة بالطفل أو بالمراهق المتنقل.

ينتمي القصر التونسيون غير المرافقون الى مجموعة تستهدفها تمثلات مرتبطة بالمنشأ، بالعرق وبالنوع. من بين هذه التمثلات ذكر القصر غير المرافقون المستجوبون الكذب والخداع والانحراف والاجرام واستحالة الاندماج .

1.1.2 الكذب والخداع

تعرض جميع المهاجرين الذين تحاورنا معهم الى التمييز على أساس المنشأ ولون البشرة حسب ما أفادوا به. ومن بين النقاط الرئيسية التي أشاروا لها، أنه دائما ما يُتوقع منهم الكذب والخداع. هذا الرأي المسبق موجود بالتأكيد حتى مع محاولة انكار القصر غير المصحوبين لتعرضهم للتمييز لتجاوز المشاكل واثبات قوتهم وكونهم "أقوى مما يعرضون له من العنف"[41].

دائما ما يتم التعامل مع الشباب – حسب أقوالهم – ككذابين، لا يقولون الحقيقة والذين يجب الحذر منهم. "دائما ما يعتقدون أننا نكذب حتى وان كنا نقول الحقيقة" عبر أحد الشباب قائلا في حديثه عن المعلمين المختصين الذين يرافقونهم في المبيت الذي يعيشون فيه. يحوم الشك وعدم الثقة باستمرار حول هؤلاء

[41] بن مسعود، هناء بن مسعود "80% من الوافدين الجدد لا يعملون أو يتحدثون الفرنسية أو يلتزمون بقيم المجتمع الكيبيكي: تحليل للتمثيلات الاجتماعية للمهاجرين في كيبيك.(2023) ".

الشباب مهما كانت علاقتهم اليومية بالأشخاص الذين يعملون في المؤسسات التي تكفلهم. شبهة الكذب [42] ترافقهم طيلة عملية التكفل وتعرضهم الى معاملات تمييزية وعقوبات وتبعات على المدى الطويل[43] .

في هذا السياق، حدثنا أحد الشباب:" نكذب لأنهم في كل الأحوال لا يصدقوننا". تعرض هذا الشاب الى عديد المشاكل بالمبيت: عقوبات، الزامية تنظيف غرفته تحت مراقبة معلم يحتقره، افتكاك هاتفه الجوال...الخ. دائما ما تحوم حوله شبهة الكذب ويوضع دائما تحت المراقبة. تغيرت التعاملات حين قرر التصريح لأعضاء الفريق بكل ما يكبته اثر موجة غضب حيث تحدث عن الأحكام المسبقة التي أثقلته و"دفعته" للكذب في حين أنه كان يقول الحقيقة حين اشتبهوا كذبه.

2.1.2 الانحراف

الى جانب الكذب، أكد الشباب بأنهم مشتبهون بالانحراف[44]. تغلب شبهات الاجرام على الأحاديث التي يسمعها هؤلاء الشباب حولهم حيث يُنظر لهم كمنحرفين ومجرمين في المستقبل[45]. تغطي هذه التمثلات جوانب عديدة من حياتهم وتمس من المشاريع التي يصورونها لمستقبلهم. جاء هؤلاء الشباب هادفين الى التحرر ليجدوا أنفسهم عالقين، يواجهون الشكوك والرفض[46] .

يصبح هؤلاء القصر غير المصحوبين منبوذين اجتماعيا لما يحملونه في ذاكرتهم من مواقف موصومة وحتى مخزية.

في هذا الصدد، حدثنا أحد الشباب: "يخافني الناس في الشارع ولا أفهم غالبا السبب اذ لم أتسبب في أي أذى". حدثنا شاب آخر بأن كبار السن يغيرون مقعدهم حين يجلس الى جانبهم في المواصلات العامة وبأن لا أحد يجيبه حين يسأل عن الساعة في مكان عمومي بل يبتعد الناس عنه باديا عليهم الخوف.

التعرض لهذه الشكوك له آثار سلبية على تمثلات الشخص لنفسه اما من خلال عدم الفهم والحيرة أو من خلال لعب الدور الاجتماعي المتوقع[47] .

---

[42] توماس، فيتييه. "وضع اللغة السيئة في كلمات: سرد ممارسات الشباب المهاجرين القُصّر غير المصحوبين بذويهم في رين." اللغات السيئة: الهجرات والتنقلات في قلب السياسات والمؤسسات والخطابات (2018): 101.

[43] خيمينو مونتيردي وشابير وأينوا رودريغيز. الشباب والمراهقون والأطفال المهاجرون: المهاجرون الجدد. وقائع ندوة مؤتمر غرناطة، إسبانيا، سبتمبر 2015. رقم.2016 .2016. ART-2016-127387

[44] ليال، ريبيكا إيرين. أبي الأجنبي: القوالب النمطية وتمثيلات المهاجرين الجزائريين في فرنسا .Diss .جامعة أيوا، 2012.

[45] فيشر، نيكولاس. " حماية المنجمين ومراقبة المهاجرين 1: المضاعفات العاطفية والمعنوية لمقارنة المنجمين الذين تم احتجازهم على الحدود أمام محكمة الحريات والاحتجاز.717-689 :(2012) 4 Revue française de sociologie ".

[46] مازوتشيتي، جاسينت وفنسنت يزربيت. "أزمة الهجرة: هل يغذي الخطاب الإعلامي الخوف من المهاجرين؟ Changing Societies 7 (2019): 1-8.

[47] رابورت, نايجل. "الذوات المهاجرة والصور النمطية: السياق الشخصي في عالم ما بعد الحداثة". رسم خرائط الموضوع: جغرافيا التحول الثقافي (1995): 267-282.

الاتهام بالانحراف وتمثيل الخطر هي مظلمة يعيشها الشباب مرتبطة بالتمييز العرقي. في نظر الشعب الفرنسي، يجب تفادي هؤلاء الشباب وعدم الاحتكاك بهم أو ازعاجهم خوفا من التعرض لعنفهم كما تتحدث الخطابات الاعلامية[48]. يتحول القصر التونسيين غير المصحوبين في الفضاءات العامة والسياسية حسب التمثلات الاجتماعية للخطر والانحراف من "فئة في خطر" الى "فئة خطيرة".

3.1.2 استحالة الاندماج

يقول القصر التونسيون غير المرافقون بأنهم أيضا يُعتبرون غير قادرين عن الاندماج في فرنسا، على خلاف الجنسيات الأخرى. أكد عديد المشاركين بأنهم يُتعامل معهم بشكل مختلف رغم سنهم بسبب بعض الملامح المزعومة، ملامح اجتماعية وثقافية. تحدث الشباب عن نوع من العرقلة بسبب عدم اتقان اللغة الفرنسية نظرا للبيئة المهمشة التي كبروا فيها. في هذا الاطار، حدثنا أحد الشباب: "نحن لا نتحث الفرنسية كسود البشرة الذين يعتبرونهم متحضرين أكثر منا. هذا بالإضافة الى أنهم ليسوا مسلمين بالتالي الأمر أكثر سهولة بالنسبة لهم." يعبر الشاب بهذه الكلمات عن مشاعر تؤججها عناصر تمييزية وغيرة من الأدوات التي يملكها بعض القصر غير المصحوبين من افريقيا جنوب الصحراء. حسب روايتها تنقلب الآية التمييزية والأفارقة من جنوب الصحراء الذين يتعرضون للتمييز والعنف في تونس يصبحون أكثر قابلية للاندماج في فرنسا بسبب المسلمات الفرنسية التي تقول بأن الأشخاص القادمين من دول افريقيا الغربية أكثر قابلية للاندماج.

عدم اتقان اللغة كذلك يعرض الشباب الى تهمة الكذب حين يقولون بأنهم لا يفهمون الفرنسية. واصل الشاب قائلا: "قاموا بتوفير مترجم لشاب هندي، أما نحن فهم يعتقدون أننا نكذب حين نقول أننا لا نفهم لغتهم لأن المهاجرين التونسيين ذوي الوضعيات الجيدة قالوا بأن جميع التونسيين يتحدثون الفرنسية".

بالإضافة الى اللغة، يُحكم على التونسيين بأنهم غير قادرين على الاندماج بسبب ثقافتهم وطباعهم. على سبيل المثال، صرح أحد الشباب: "المبيتات لا ترغب في قبول التونسيين لأنهم يفتعلون الكثير من المشاكل." وأضاف قائلا: "ولكننا مختلفون، نحن فقط نحاول التحايل للتأقلم مع مختلف الوضعيات. مثلا الشاب الفلسطيني ليس مثلنا، فهو هادئ الطبع ويذهب الى المدرسة فالطبع يتم التعامل معه بشكل مختلف."

بالنسبة لهذا الشاب، تأخذ عدم القدرة على الاندماج بعدا آخر على أساس الحيلة والانفعالات والتقلبات. وبما أن سمات الشخصية ليست معطى ثقافي أو وطني وبما أن هذه الحجة تم دحضها لخلفيتها الثقافية

[48] برودوم، دوروثي. "القاصرون غير الموثقين: الضحايا الصامتون لسياسة الهجرة الأوروبية". Ramses 2014 Les jeunes: vers l'explosion? المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية, CAIRN.INFO. internationales, 2013. p.58-63. https://shs.cairn.info/les-jeunes-vers-l-explosion--9782100589364-page-58?lang=fr.

والاستعمارية[49]، في الأغلب تعود هذه النظرة للذات الى الأحكام العنصرية التي تستهدف المغاربيين في فرنسا[50]. بالتالي، يجد القصر التونسيين غير المصحوبين أنفسهم في نفس وضعية "العمال غير المندمجين" الذي كانوا من بين أول المهاجرين المغاربيين الى فرنسا والذين تحدث عنهم عبد المالك السيد في 1991.[51]

2.2 العلاقة مع تونس والموقع في فرنسا

1.2.2 قطيعة متسرعة

يمكن التفكير في مغادرة بلد ما بطرق مختلفة. فبالنسبة للبعض، هو خيار محدد يتم اتخاذه على عجل للهروب من نموذج حياة لا يتوافق مع القيم والظروف المعيشية المتخيلة والمتوقعة. كان هذا هو الحال بالنسبة للعديد من المشاركين في الاستبيان.

أثيرت مسألة الهروب عدة مرات لتفسير خيار المغادرة. بالنسبة لأحد الشباب، كانت مسألة الهروب خلال فترة المراهقة الحرجة مهمة. حيث قال: "كان عليّ أن أهرب قبل أن أخسر حياتي مثل الآخرين". بالنسبة لهذا الشاب، فإن الهروب هو قرار حاسم ومسألة تتعلق بحياة ومصير هؤلاء الأشخاص .

كما أشار آخر إلى سهولة التأقلم بسبب صغر السن، حيث قال: "أنا صغير السن، لذلك من السهل التأقلم. أنا لست مثل إخوتي الذين كبروا وذهبوا إلى الجامعة في تونس". إن مسألة السرعة والحاجة إلى الاستفادة من صغر سن القصر غير المصحوبين هو شعور مشترك، وهو ما أكده الشباب الآخرون.

والحاجة إلى المغادرة ملحة لأن ذلك لن يكون ممكناً إذا بلغوا سن 18 سنة. ستختفي إمكانية الحصول على تصريح إقامة إذا ما اضطروا إلى عبور الحدود كراشدين. ويبدو أن المغادرة كقاصر هي أفضل طريقة بالنسبة لهم للحصول على حياة أوروبية و"الحصول على أوراق رسمية دون معاناة كبيرة"، كما قال أحد الشباب.

تحدد مسألة الزمن وزمنية الهروب معالم فكرة الحاجة إلى القطيعة [52] وتتمثل حياة القصر غير المصحوبين في سلسلة متصلة من" الانقطاعات اليومية "التي تعكس العمليات المتناقضة ظاهريا، من ناحية، من خلال الانقطاعات والانفصالات، ومن ناحية أخرى، من خلال الثبات الذي يصاحب الحياة اليومية [53].

---

[49] تيفانيان، بيير. العنصرية الميكانيكية. La Découverte, 2017 .

[50] شيبارد، تود الاستعمار: "الإنسان العربي" وفرنسا، من استقلال الجزائر إلى الثورة الإيرانية Éditions Payot ، 2017.

[51] عبد المالك، صياد .الهجرة أو مفارقات التغيير. Brussels, De Boeck (1991) ".

[52] هاريس، جيسون ر. "الاستمرارية من خلال التمزق: المكان والزمان والسياسة في الهجرات الجماعية لديونيسيوس الأكبر." مجموعة معهد العلوم والتقنيات في العصور القديمة 1442.1 (2018): 135-157.

[53] بوم، ديبورا أ. وآخرون "الأطفال والشباب والتمزقات اليومية للهجرة". التمزقات اليومية: الأطفال والشباب والهجرة من منظور عالمي. مطبعة جامعة فاندربيلت، 2010. 1-19.

2.2.2 بين الطاعة الرمزية والتمتع المادي

لا يكون خيار المغادرة دائما نهائيا أو جزءا من خطة حياة طويلة الأجل. فبالنسبة للبعض، لم يكن الخيار بيدهم. لذا، فإن البقاء في بلد غير مألوف والاضطرار إلى التعايش مع قيود وصعوبات حياتهم الجديدة يعتبران بمثابة الحصار "بين المطرقة والسندان ."

بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، مصيرهم محكوم بالتناقضات .[54] إن التواجد في فرنسا والاحتفاظ بعلاقات قوية في تونس أمر شائع للغاية، ويدل على مقاومة حسرة المنفى. ومع ذلك، كان العديد من الشباب الذين التقيناهم يعانون من المغادرة المتسرعة التي قاموا بها، وكانوا تحت ضغط عائلي وظهرت عليهم علامات الاستهلاك المفرط (من الملابس ذات العلامات التجارية وأجهزة الكمبيوتر والمشروبات الكحولية باهظة الثمن) .

فمن ناحية، عليهم أن يلبوا توقعات المؤسسات من حيث الدراسة وتعلم اللغة والتفاوض المستمر مع الآخرين. ومن ناحية أخرى، هم مدفوعون إلى الاستهلاك المفرط للاستمتاع بأوروبا، ويأملون في إرسال أو يبعثون المال إلى عائلاتهم التي تفتقر إليه، على الرغم من استحالة الحصول على هذا المال بشكل قانوني . يكون القاصرون غير المصحوبين - إلى أن يبلغوا سن 18 سنة - في مرحلة توقف أو مرحلة استكشافية. ويتعين عليهم التنقل في المؤسسات والبقاء فيها لأسباب إدارية ولوجستية. وفي الوقت نفسه، يحتاجون إلى فهم مخاطر حياتهم الجديدة في فرنسا. وللحفاظ على استمرارية سيرتهم الذاتية التي يحتاجون إليها خلال سنوات مراهقتهم، فإنهم يحافظون على صلاتهم بعائلاتهم ومعارفهم في تونس. ومن خلال الحفاظ على هذه الروابط، يدفعهم ذلك إلى الاستجابة لاحتياجات وتصورات أولئك الذين بقوا في تونس، مع الحفاظ على أسطورة "أوروبا- الجنة"، وهي مساحة للاستهلاك والمتعة المادية.

3.2 رعاية القصر التونسيين غير المصحوبين داخل النظم المؤسسية الفرنسية وخارجها

1.3.2 الحواجز التي تم تجاوزها

يواجه القصر التونسيون غير المصحوبين في المؤسسات التي يزورونها، عوائق لم يعتادوا عليها أو يستعدوا لها. ولضمان حصولهم على تصاريح إقامة عندما يبلغون سن الرشد، فإنهم ملزمون باتباع أوامر المؤسسات[55].

[54] صياد، عبد المالك 'L" .الهجرة أو مفارقات التغيير. الأطفال غير الشرعيين.(2006) Lectures, Publicaciones recibidas ".
[55] بيرو، أوليفييه. "المراهقون في الهجرة أو الأوجه المتعددة للعولمة". الإدارة والتعليم 2 (2020): 25-28.

تشمل العوائق التي يواجهها القصر غير المصحوبين أشكالاً جديدة من السلطة والقيود المؤسسية والإدارية.[56] إن المشاركة في الأنشطة الاجتماعية أو التعليم أو التدريب المهني كلها جزء من ميثاق الاندماج، حتى يتمكنوا من البقاء في المبيت والحفاظ على نمط حياة يهيئهم لمرحلة البلوغ. لا يتم تبني هذه الأنشطة بحماس كبير دائما بعد تعرضهم للصدمات والتعود على نمط حياة معين .

العلاقات مع الموظفين ليست دائما سهلة. أثيرت مسألة الانضباط من قبل اثنين من الشباب الذين واجهوا بالفعل مشاكل مع المربين في المبيت الذي يعيشون فيه. "لا نريد أن نتبع القواعد بهدوء. عليهم أن يشرحوا لنا لماذا علينا أن نفعل ما يقولون لنا أن نفعله. إذا أعطيتني الأوامر، فلن أتصرف بشكل جيد"، قال أحد الشباب معترضا على السلوك القائم على الأوامر وليس على فهم القواعد التي يجب تطبيقها في المبيت. وقال آخر موضحا مقاومته للانضباط الذي يفرضه المعلمون: "إنهم يعتقدون أنهم آباؤنا. عليهم أن يتلاعبوا مع شخص آخر ."

بالإضافة إلى مسألة الانضباط الصارم، نوقشت اللغة كأحد العوائق التي تواجه الشباب. فقد اعتُبر الاضطرار إلى حضور دروس اللغة الأجنبية الفرنسية كل أسبوع بمثابة محنة، بالإضافة إلى صعوبات التواصل مع فرق الدعم والأشخاص الجدد الذين يتم الالتقاء بهم داخل المؤسسات وخارجها .

يمكن أن يكون العيش في المبيت مع قاصرين آخرين غير مرافقين أمرا معقداً بالنسبة للشباب الذين تمت مقابلتهم. فقد ذُكرت المشاجرات ومشاكل الاستنكار من قبل المربين، فضلا عن تصفية الحسابات خارج المؤسسات. ووفقا لهم، تنشأ روح الجماعة بين أبناء الشمال الأفريقي عندما يتعلق الأمر بأصول أخرى، وبين التونسيين وغيرهم عندما يتعلق الأمر بمغاربة أو جزائريين، وبين أبناء صفاقس (بما أنهم الأغلبية) وغيرهم عندما يتعلق الأمر بتونسيين من مناطق أخرى.

2.3.2 الاستراتيجيات التي تم وضعها

إن القاصرين غير المصحوبين هم أفراد يواجهون يوميا صعوبات وحواجز تعيقهم وتدفعهم في اتجاهات معينة. إن الهيمنة التي يعانون منها ليست بديهية؛ فهي جزء من عملية دقيقة لأنهم يشكلون أيضا جزءا من دينامية المعونة والمساعدة .

[56] جاردان، ليا. حماية القاصرين غير المصحوبين بذويهم في فرنسا. أطروحة. جامعة باريس بانتيون-أساس، 2022.

في الواقع، بالنسبة للأشخاص الخاضعين لسلطة ضمنية ومقيدة، مثل القاصرين غير المصحوبين في علاقتهم بالمؤسسات والعالم الغربي الخارجي، يمكن تعريف الفاعلية بأنها "القدرة على المناورة ضمن قيود معينة [57]."

تختلف هذه الاستراتيجيات وفقا للملامح والموارد المتاحة للق0اصرين غير المصحوبين. فبينما يستطيع البعض تحدي القيود بشكل علني، فإن البعض الآخر أقل قدرة على القيام بذلك بسبب عزلتهم أو ضعفهم. على أي حال، لم يكتفِ أي من القاصرين غير المصحوبين الذين التقيناهم بالتحمل. فكل واحد منهم - بطريقته الخاصة - يطور استراتيجيات للبقاء والحفاظ على صورته الذاتية وصورته عن العالم .

فمن ناحية، يختار بعض القاصرين استراتيجيات الاستفادة من الأحكام المسبقة "للمهاجر الضحية والمصدوم". فهم يستخدمون هذه الأحكام المسبقة لإدارة القيود والحصول على امتيازات ومعاملة تفضيلية، أو حتى النوم لساعات أكثر من غيرهم، دون أن يزعجهم أحد. هذه هي حالة "م"، وهو شاب قاصر غير مرافق، يستخدم استراتيجيات تبرز صعوباته النفسية من أجل أن يُعامل كشخص ضعيف نفسيا .

ويستخدم قاصرون غير مرافقين آخرون استراتيجيات التحدي المباشر للتغلب على القيود وتجنب التعرض للمشاكل مع المربين أو الأشخاص الذين يقابلونهم في الشارع. وكما قال أحد الشباب: "إنهم يعرفون أنه لا يجب العبث معي". من خلال تبني سلوك يوحي بالخوف والبرودة، يتجنب هذا الشاب التعرض لمواقف صعبة.

وبالمثل، فإن الاستراتيجيات القائمة على التفاوض هي الأكثر استخداما من قبل القصر غير المصحوبين الذين لا يخاطرون ويصرحون بأنهم لا يريدون أن يتعرضوا لمضايقات من أقرانهم في حال اكتشافهم لأي نقاط ضعف. كان هذا هو الحال بالنسبة لأحد الشباب الذي قال إنه يحاول تعلم القواعد. تم التأكيد على الاعتذار والاستعداد للتعلم كوسيلة لمقاومة الأوامر الزجرية مع الاستفادة القصوى من الفرص

[57] كوتين، سوزان بيبلر تقنين التحركات: نضال المهاجرين السلفادوريين من أجل الحصول على الإقامة في الولايات المتحدة. مطبعة جامعة ميشيغان، 2003.

الخاتمة

في الختام، يستكشف هذا المقال الأبعاد المتعددة لرحلات القصر التونسيين غير المصحوبين . وتتسم هذه المسارات المعقدة للهجرة بصياغة مشاريع هجرية خلال فترة أزمة المراهقين وإمكانية تسجيلهم لدى مؤسسات حماية الطفل، إذا ما أدت عملية تقييم عدم بلوغ سن الرشد والعزلة إلى الاعتراف بحاجتهم إلى الرعاية .

وتبرز تعقيدات مغادرتهم ورحلتهم واستقرارهم واندماجهم في السياق الأوروبي في خطابهم الذي يصيغونه حول مشروع الهجرة، في إسقاط مستمر على المستقبل. يتم بناء هذا المشروع أولا في المخيلة قبل أن يتم وضعه موضع التنفيذ. وغالبا ما تتشابك أسباب المغادرة مع القضايا العائلية والمسؤوليات والسعي إلى الفعالية. يتسم العبور نفسه بالمخاطر والصدمات النفسية، ولكن أيضا بفيض من التضامن.

لا يمثل وصول القاصرين غير المصحوبين إلى أوروبا، وخاصة في فرنسا، نهاية التحديات: فغالبا ما تصطدم التطلعات الأولية بواقع التهميش، والسفر داخل أوروبا بحثا عن مكان تكون فيه الحياة والمؤسسات أكثر ملاءمة، وجهود الاندماج في المؤسسات التي غالبا ما تتسم بعدم الثقة والأوامر الزجرية لإثبات استحقاق المساعدة. وخلال هذه العملية، تجعل العزلة والصعوبات في البحث عن الاعتراف الأمر أكثر تعقيدا.

يؤدي عبور الحدود إلى تفعيل ديناميكيات الهوية. فالمراهقة في سياق الهجرة لا تفلت من بناء تمثلات اجتماعية موصومة، لا سيما فيما يتعلق بالكذب والجنوح واستحالة الاندماج المفترضة لهؤلاء الشباب .

لذا فإن القصر التونسيين يتنقلون في هذه التمثلات بطرق مختلفة، إما أن يتصرفوا بإلحاح في حاجة إلى الهروب أو يتنقلون في وسط ثقافي ورمزي بين الأمرين، ممزقين بين التوقعات الاجتماعية وسعيهم إلى حياة جديدة .

داخل المؤسسات التي تدعمهم وخارجها، يواجه القصر التونسيون قيودا ويطورون استراتيجيات للتكيف مع الأنظمة القائمة والمجتمع الذي يمكن أن يكون معاديا لهم أو يتجاوزونها. يُظهرون مرونة في مواجهة الحواجز النظامية والهيكلية.